MUDALLA : PROCEEDING INTERNATIONAL CONFERENCE ON ARABIC LANGUAGE
ISSN : 2807-8780
(MUDALLA) المؤتمر الدولي للغة العربية وآدابها وتعليمها
قسم الأدب العربي جامعة مالانج الحكومية

إعجاز الإيقاع في الذكر الحكيم
- ترادية الإيقاع الداخلي الخفي في سورة القمر-
محور الأساليب الإعجازية في القرآن الكريم

أ.د/ محمد الأمين خلادي
قسم اللغة والأدب العربي
مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة أحمد دراية أدرار- الجزائر
البريد الالكتروني alaminek@univ-adrar.edu.dz

مستخلص البحث

القرآن العظيم إعجاز ديني وروحي وإيماني توحيدي يهدي للتي هي أقوم، كتاب الله العزيز المكنون، هو إعجاز بياني صوتي كذلك؛ ذلك لأنه بيان معجز يطابق صوته معناه والدلالة هي نفسها موافقة للصوت كما اختاره الله تعالى لكلامه، رغم أن أصوات العربية وحروفها واحدة مقارنة بحروف القرآن الكريم وأصواته. فالإيقاع الذي نريد دراسته وتدبره هنا هو تكرار الصوت المعجز وترداده، هو تركيب بياني ذو صوتية إعجازية أصلها المعنى الذي يبلغ القلب والروح ويتجاوز الأسماع، إيقاع جلي وخفي معا، وهو من أساليب الإعجاز الحكيم نبحثه بالاِدِّكار والاستنباط في سورة القمر.

الكلمات الرئيسية: إعجاز الإيقاع؛ القرآن الكريم؛ ترادية الإيقاع الداخلي الخفي؛ سورة القمر

المقدمة

بات القرآن العظيم مصدر النور الإيماني والكامل لحيوات العالمين مطلق، كما بات بلسانه العربي المبين وإعجازاته الحكمية والأحكاميةوالمعاملاتية والأخلاقية، وكذا الصوتية البلاغية البيانية التوصيلية مصدر العطاء المنور بالهداية والجمال اللغوي المعجز.

ومن ذلك الإمدادات الصوتية المعجزة في الصوت والتركيب والإبلاغية للبشر بل الجن، ومنه استمديت الإيقاع الخفي الداخلي أدرسه في سورة القمر، ويبدو في عموم الاطلاع أنه مبحث مغمور يكاد ينعدم في الدراسات المنجزة إلا ما ندر.

الترداد و الإيقاع الداخلي : مما أثرى سورة القمر تماسكا و تناسقا في تركيباتها و مضامينها هذا النمط من الإيقاع الذي توزع على امتداد آياتها الخمسة و الخمسين بأكملها، فالقرآن « معجم تركيبي قبل أن يكون معجما لمفردات ذات دلالات مستقلة، و دراسة موسيقى القرآن هو محاولة للبحث عن بعض أسرار طرب النفس لسماعه والحكمة الإلهيةفي ذلك...إذ أن كل أنواع الإيقاع في اللغة قد شملهالقرآن»**(حليمة مدرس بوداود، 2003،ص:143)**، بل إنه الخطاب المعجز بإيقاعه الفذ الذي استقل عن كل موازين الشعر و النثر القاصرة عن الإحاطة به، ولقد اتخذ هذا الإيقاع «أشكالا متعددة و مختلفة في الآياتs و في السور، منه الإيقاع بالتكرار فهو إما تكرار ضمائر أو حروف أو ألفاظ أو جملا »**(حليمة مدرس بوداود، 2003،ص:137)** أو أساليب ترادية فائقة في الأداء والتناسق والترتيب الدقيق والعجيب .. ولعل السورة القمرية مما نحسبه شاهدا على هذا؛ فتأمل معي وترنم بما في هذه الثنائيات الترادية المعجزة من إيقاعات تأسر الفكر و تثير الوجدان :

سحر مستمر	**الآية 2**
أمر مستقر	**الآية 3**
شيء نكر	**الآية 6**
جراد منتشر	**الآية 7**
يوم عسر	**الآية 8**
ماء منهمر	**الآية 11**
نحس مستمر	**الآية 19**
نخل منقعر	**الآية 20**
كذاب أشر	**الآية 25**
الكذاب الأشر	**الآية 26**
شرب محتضر	**الآية 28**
عذاب مستقر	**الآية 38**
عزيز مقتدر	**الآية 42**
جميع منتصر	**الآية 44**

كبير مستطر الآية 53

مليك مقتدر الآية 55

و لعلك تستشعر ما بثته هذه الأزواج المرددة من إرهاصات نغمية متكافئة أصلت للإيقاع الداخلي للسورة بتوليدها المحكم لوحداته التركيبية و عناصره البانية.

و أما التشكيلات الإيقاعية الواردة جملا فعلية، فكانت على النحو التالي :

انشقّ القمر الآية 1

تُغْن النّذر الآية 5

جاء آلَ فرعونَ النذر الآية 41

يولّون الدبر الآية 45

تراكيب إيقاعية موحية و معبرة، تضمّنتها جمل تناوعت بين الإخبار و التحقيق (اقتربت الساعة و انشق القمر)، (و لقد جاء آل فرعون النذر)، و بين النفي (حكمة بالغة فما تغن النذر) و بين التقرير المستقبلي (سيُهزم الجمع و يولون الدبر). و قد أدت هذه التراكيب إلى إنشاء إيقاع أسلوبي مميز اختصت به هاته الآيات، لما حملته من دلالات و إيحاءات على (ما كان) من قصص الأمم الغابرة كآل فرعون وعلى (ما هو كائن) من حقيقة المعجزة القمرية، و على (ما سيكون) قريبا من هزيمة المشركين المكذبين لهذه الحقيقة.

فليس الإيقاع متوقفا على موسيقاه و حسب، و هذا ما لم يُغْفله السياق في توظيفه للإيقاع بأسلوب العرض المميز في هذه السورة المميزة.

و إذا كانت «الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار»**(أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني،1988،ص:258**) فهذا ما استأثر به الخطاب المعجز في انتقائه المحكم لدقيق الألفاظ و أنسبها « إذ هي التي تقرع السمع، على حين أن المعنى يتعدى إلى النفس و هذا ما يوجب العناية بالحروف التي تتركب منها الألفاظ»**(توفيقالزيدي،1985،ص: 143)** و لا أدل على ذلك من المفردات الإيقاعية التي ترددت في صور شتى من الفواصل القمرية الواردة على شكل أفعال، و هي:

ازدُجرْ الآية 9

قُدِرْ الآية 12

كُفِرْ الآية 14

عقَرْ الآية 29

شكَرْ الآية 35

اصطبِرْ الآية 27

انتصِرْ الآية 10

إن هذه التحولات الصوتية و التبدلات الطارئة على بنى هذه الأفعالو ما لحقها من آثار إيقاعية كالتفخيم و الترقيق و الجهر و الهمس و الإطباق و الانفتاح و المماثلة، لتدل على ما في إثارة الحدث المناسب و زمنيته الموقوتة من فاعلية داخل السياق، و هذا دأب «الإيقاع الداخلي للألفاظ و الجو الموسيقي الذي يحدثه عند النطق بها .. فهو يعتبر من أهم المنبهات المثيرة للانفعالات الخاصة المناسبة**(سميرأبوحمدان،1991،ص:69،بتصرف)**» فالمماثلة الصوتية ظاهرة في الفعل الخماسي (ازدُجِرْ) الذي هو في الأصل (ازتُجِرْ)، فانحسرت التاء المهموسة المرققة اللثوية لتتحول إلى صنوها الدال، إلا أن صوت الدال مجهور و شديد، مما تغلب على الهمس بتفاعله القوي مع صوت الزاي المجهور، و لعل ما في هذه المفردة البديعة من شدة و قوة إسماع مما ناسب قوة الزجر و الانتهار و شدة التحامل و التخويف و السباب الذي لاقاه سيدنا نوح عليه السلام من قومه، و لقد تعدّت إيقاعية هذه التشكيلة لتشمل و تتناسب مع ما جاورها من مفردات (و قالوا مجنون وازدجر) إذ « قال مجاهد (و ازدجر) من تمام قولهم أي: قالوا(و ازدجر) أي: استطير جنوبا أي: ازدجرته الجن و ذهبت بلبه و تخبطته »**(أبي حيان الأندلسي،2001،ص:175)**و كذلك الأمر بالنسبة لفعليْ (قُدِرْ) و (كُفِرْ) ، و لنرجئ تفصيل هذا فيما بعد.

إن الصاد من الأصوات المهموسة المرققة الإطباقيةالصفيرية التي يُجتذَبُ جذر اللسان عند نطقها نحو الجدار الخلفي للحلق، و من عجيب الصنعة الصوتية أنها انبجست صارخة و مدوية من حلق سيدنا نوح عليه السلام، ذاك النبي الصالح العابد الذي غُلِبَ على أمره فـ « كان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخرّ مغشيا عليه»**(أبيحيانالأندلسي،سنةالنشر،ص:175)**و لهذا انطلقت صرخة دعائه عليهم من موضع الأذى الذي آذوه فيه (فانتَصِرْ)، و تأمل صدى هذه المفردة و إيقاعها المنفتح على ما قبلها من أصوات مكروبة و مضطرّة و باكية (و دعا ربّه أني مغلوب) و على ما بعدها من إجابات و فتوحات إلهية (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، و فجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر، و حملناه على ذات ألواح ودسر، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر)

و كذلك، مارست ظاهرة التفخيم تأثيرها الصوتي في هذه الترددات الإيقاعية القمرية، و هذا ما نلحظه في فعل الأمر الإلهي الموجه لنبيّنا صالح عليه السلام (و اصطبر) ، فلما اقترن حرف الطاء و هو من الحروف الصامتة اللثوية المفخّمة بالصاد أدّى ذلك إلى قوة مضاعفة في الضغط و الارتكاز، مما أحدث إيقاعا شديدا أثراه صوت الراء التكريريالموحي بمضاعفة الصبر و ترداده.

و لو قمنا بتفكيك المنظومة الصوتية التي قامت عليها إيقاعية الآيتين الكريمتين (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر)، (نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر) فلسوف نلفي إيقاعين بديعين و مكثفين يسيران وفق حركة تناغمية منسجمة لا نظير لها؛ أولاهما الإيقاع الكامن في لفظة (عقر) إشارة إلى تلك القصة الطويلة عن ناقة سيدنا صالح عليه السلام مع قومه، و الثانية في لفظة (شكر) فهي تعم كل شاكر لأنعمه تعالى ..

إن « الإيقاع الموسيقي صورة قبل أن يكون شيئا ماديا، لأن عناصر الإيقاع هي الأنغام، و لكي تكون لذيذة لا بد أن تكون مرتبة و موزعة على أحسن وجه »**(عمرالسلامي،1980،ص:230)**و لأجل هذا لم يلْوِ الخطاب القمري الطرف عن حروف الجر و الربط التي جاءت لتقوم بهذا الترتيب و التوزيع البديعين؛ فقد توزعت هذه الوحدات الاتساقيةالترادية و بشكل خاص على النمط التالي:

عذابي و نذرى	الآيات: 16،18،21،30،37،39
ألواح و دسر	الآية: 13
ضلال وسعر	الآيتين: 24،47
جنات و نهر	الآية: 54
بالنذر	الآيات: 23،33،36
بالبصر	الآية: 50
بسحر	الآية: 34
بقدر	الآية: 49
فيه مزدجر	الآية: 4
في الزبر	الآيتين: 43،52

و لايخفى ما لهذه الوحدات من فاعلية في التماسك الشكلي و الإيقاعي لهذه السورة و في التئام آيها بإتقان محكم و حكيم .. و في الارتباط الحميم لذاك التماسك بصنْويْه الدلالي و التناسقي لهذا النظم المعجز ..

« إن لصيغة التعبير من حيث الدقة و حسن الاختيار، و الإحكام و قوة السبك، و جمال التناسق؛ الأثر في إحداث الإيقاع داخل العبارة.. و إنها لتُكيّف نغمة الإيقاع، و تحيله إلى طابع موسيقي، يتناسب ونوع تموّجات الإيقاع داخل العبارة (**عمرالسلامي،1980،ص:402 بتصرف**)»و هذا ما نلحظه في ترداد صيغة (كأنّهم) في قوله تعالى من الآية السابعة (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر)، و في قوله تعالى من الآية العشرين (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر)

لقد أوجدت هذه الصيغة المردّدة نغما انسيابيا متناهيا في دقة التصوير و تجسيد المعنى.. إذ شبّه في الآية الأولى المشركين المكذبين بالجراد في الكثرة و التموّج و أما في الآية الثانية التي تتحدّث عن مصرع قوم صالح عليه السلام، فقد كانت الريح تقطع رؤوسهم، فتصير أجسادهم بلا رؤوس، فأشبهت أعجاز النخل المقلوعة من مغارسها.

و من خلال هذه الصيغة الترادية الإيقاعية تبرز عظمة التصوير القرآني المعجز، لترتدّ عظة وعبرة في قلب كل معتبر و متدبّر..

و إذا تأملنا أكثر في هذا النظم القمري الفريد، فسوف لن يشقّ علينا و نحن نستبحث أسرار صيغه و عباراته المرددة أن نكاشف المزيد منها لأنه «عند مستوى تحليل الصيغ و البنيات المتنوعة و الوحدات اللغوية المؤثرة ظهر ما يندّ عن طاقة البشر و ما لا يقدر عليه أحد»(**البدراويزهران،1993،ص:11**)، و عليه فقد ترددت صيغة التشبيه مرة أخرى و بصورة مخالفة لسابقتها في العبارتين التاليتين:

كهشيم المحتضر: من الآية 31

كلمح بالبصر: من الآية 50

فلا يخفى ما في هاتين الصورتين من تشكيل بنائي و إيقاعي أخذ أقصى مداه، ليجلي لنا عن آخر صورة آلت إليها ثمود المكذبة الأشرة (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر) ، و عن أعظم صفة لأمر الله و لإرادته و كلمته كُنْ؛ (و ما أمرنا إلا واحدة تشبيه بأعجل ما يحسّ .. و المعنى : أنه إذا أراد تكوين شيء لم «كلمح بالبصر) ، و في هذا **(أبيحيانالأندلسي،2001،ص:182)**»يتأخر عن إرادته

و إذا شئنا تفكيك هاتين الصيغتين، كانتا على النحو التالي:

الترادادة المفردة ك ↔ك

الترادادة الثنائية كهشيم ↔ كلمح

الترادادة الثلاثية كهشيم المحتضر ↔ كلمح بالبصر

و لعلك تستشعر.و أنت تتلفّظ أو تستمع إلى هاتين العبارتين.ما فعلته (ال) التعريف في لفظة المحتضر و (الباء) الجارة للفظة البصر من انسجام و اتساق في هذين التنغيمين الجميلين و ما ترتب عن ذلك من فرادة في الإيقاع و الإمتاع و دلالة المعنى و الإبلاغ.

و شبيه ذلك ما نجده في هاتين الصيغتين القمريتين:

ذوقوا عذابي و نذرى الآيتين:37 ،39

ذوقوا مسّ سقر الآية: 48

فلقد وردت الصيغة الأولى في الآية 37 (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذرى) ، و ترددت مرة ثانية في آية مستقلة هي الآية 39 ، و الحكمة في هذا الترداد أن الأولى جاءت على ألسنة الملائكة لقوم لوط، فلقد « جرّ جبريل عليه السلام على أعينهم جناحه، فاستوت مع وجوههم.. فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب، حتى أخرجهم لوط عليه السلام»**(أبيحيانالأندلسي،2001،ص:180)** و هذه حقيقة الطمس، و أما الترادادة الثانية (فذوقوا عذابي و نذرى) فقد جاءت عند تصبيح العذاب « (و لقد صبحهم بكرة) أي أول النهار و باكره**(أبيحيانالأندلسي،2001،ص:180)**»

و لأن صيغ هذا البيان المعجز هي من كلام العزيز الحميد، فلقد جلت أن تُنتقَد، و لهذا فترداد هذه الصيغة في قوله تعالى (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) فهو ليس لمجرد الترداد، بل لحكمة الخطاب الإلهي في ما يتطلبه المقام و سياق الحال، و ما يستوجبه الإيقاع من مقاييس وكيفيات و أساليب مؤدّاها تحقيق الغرض و ترسيخه.

فالحظْ قوة هذه العبارة الصادحة (ذوقوا مس سقر) و دخولها المفاجئ في سياق الآية الكريمة، وكأن الخطاب ينقلنا بتحوّله المباغت من حال الإخبار (إن المجرمين في ضلال

و سعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ..) إلى زمنية ذاك الموعد الأدهى و الأمرّ، و بصيغة الأمر (.. ذوقوا مس سقر).. وإنك لتكاد تسمع من خلال صوت السين الصفيري و ما أحدثه من إيقاع حسيسَ جهنم و صفيرها وأزيزها..

صورة مفزعة و رهيبة .. صورة المجرمين و هم « يُسحبون في النار على وجوههم في مهانة، و يُلذعون بالتأنيب كما يُلذعون بالسعير(ذوقوا مس سقر) »**(سيدقطب،1983،ص:3442)**

فانصت مليا لإيقاع الإدغام الذي أحدثته نغمة السين، و تذوّق قرْع القاف المتردّد في هذه الصيغة الناطقة الشاهدة : ذوقوا مس سقر.

فـ « (ذوقوا مس سقر) مقول قول محذوف، و الجملة مستأنفة، والذوق مستعار للإحساس. وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة و المجازاة، و المسّ مستعمل في الإصابة على طريقة المجاز المرسل. و سقر: علم على جهنم، و هو مشتق من السقر بسكون القاف و هو التهاب في النار »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:215 ،216)**

و قريب من هذا، ما أفرزته ثنائيات السين الواقعة في عبارتيْ(سحر مستمر) و (نحس مستمر) من جمال إيقاعي فذ و مقطوعات نغمية رائعة في هذه السمفونية القمرية الخالدة.

و نظير هذا التلاون النغمي كثير و جمّ.. كصوت القاف المهيمن في قوله : (قد قُدر)، و الغُنّة الميمية الهادئة في قوله:(من مدّكر)، و الذال الدالّ و المنذر في قوله: (عذابي و نذرى) و الكاف الكائن في قوله : (كان كُفِر) ...

المستوى الترادي لسورة القمر: لعلّ أول ترادة يكاشفها المتأمل و المتدبّر في آيات (اقتربت) هي حرف الراء الذي تمايز عن غيره، بكونه ظفِر بفاصلة هذه السورة الكريمة و « انظر قدرة الله البالغة، سورة بتمامها، حرف واحد تنتهي به جميع فواصل آياتها، هو تحدّ و هو عظمة في المباني اللغوية.. فالله سبحانه و تعالى أورد سورا كاملة في كتابه الكريم كلها مسجوعة دون أن يكون السجع هدفا.. من بينها سورة القمر »**(البدراويزهران،1993،ص:202 ،203) .**

تردّد هذا الحرف مائة و ثمان مرات، منها خمس و خمسون فاصلة بعدد آيات هذه السورة المكية « و الحرف نفسه يتكرر ثلاث مرات في كل من سورة العصر و الكوثر التي تحتوي كل منهما على ثلاث آيات »**(عمرالسلامي،1980،ص:264).**

و لما كان التراداد على ثلاثة أوجه؛ ترادادٌ خفيٌ بإعادة المبنى دون المعنى، و ترادادٌ بيْنِيٌ بإعادة المعنى دون المبنى، و ترادادٌ جلي بإعادتهما معاً، فقد تردّد هذا الحرف ترداداً جلياً، و لا يغيبنّ على لبّ من شرب لغة الضاد و ذاق زلالها و أَلِف حروفها فآلفها؛ ما لكل حرف عربي أصيل من جماليات شكلية دلالية (مرسومة) و إيحاءات صوتية (منطوقة و مسموعة).. و سواء أكانت مستقلة بذاتها، كفواتح سور القرآن العظيم المفردة و المثناة و المتعددة (ق، ص، نون، حم، طه، يس، الم، الر، المر، المص، كهيعص، حمعسق..)، أو كانت ملتحمة و متصلة بألفاظٍ و عبارات بيانية كاملة؛ و ما أوفرها في معجمنا العربي الزاخر..

و لعمري، كم هو وثيقٌ هذا الحرف و ملازمٌ لعنوان هذه السورة الكريمة (القمر)، (اقتربت) فرغم اختلاف الروايات تعددها في هاتين التسميتين، إلا أن الراء لم يلبث ثاوياً متشبّثا بين مفردات هذين العنوانين، إشارة منه و تنبيها بأن معجزة انشقاق القمر ما هي إلا واحدة من علامات الساعة التي أزفت وقرب أجلها، و لما كان هذا من أبرز أغراض السورة التي أنزلت من أجلها لزم أن يرد هذا الحرف ويتردّد بصورة بارزة كمُذكّرة ترددية مؤقتة تدقّ نواقيسها في الآذان و القلوب و النفوس كلما هبّت رياح الفسوق و العصيان أو الإعراض و الطغيان..و قد « أثبتت التجارب أن التربية النفسية لا تكون إلا بالتكرار حتى تتطبّع النفس على الخير و تتصف بالفضائل»**(حليمةمدرسبوداود،2003،ص:124)** .

مما يتميز به هذا الحرف عند علماء الأصوات أنه الصوت الوحيد الذي تفرّد بصفة التكرير والترداد، و هذا مهما كان موقعه من اللفظة أو العبارة أو النص بأسره، فكيف به إذا ورد . بالإضافة إلى ذلك . فاصلة وقفية تنتهي بها الآيات.. هذا ما اختُصّت به هاته السورة المكية الكريمة..و هذا ما تيسّر لنا ذكره عن هذا الحرف المردد في سورة ملؤها الذكر و التذكير و الادّكار؛ (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر)

لا شكّ في إعجازية ألفاظ القرآن الكريم التي تفرّدت عن سوائها من حيث اصطفائها الأنسب المبدع و نظمها الأوقع الممتع، و إذا كان « الأسلوب هو ميدان خلْع الجمال و المعنى على ضروب التفرّد اللغوي، و ما أداته في هذه العملية الإبداعية سوى اللفظة الحاملة إمكانات التعبير و ألوانه الدقيقة »**(علينجيبابراهيم،2004 ،ص:7)**، وما تؤدّيه من وظائف توصيلية و دلالات إبلاغية.. و خاصة إذا اقترنت بظاهرة التراداد التي تمدّها قوة ولمعانا و تميّزا و إمعانا.

و النص القرآني القمري واحدٌ من البيانات المعجزة التي اختُصّت بهذه الميزة، فلقد وردت فيه ألفاظ عديدة و متنوّعة بين الأفعال و الأسماء و الحروف الوظيفية وغيرها، وسنحاول فيما يلي. قصراً لا حصراً. استقراء المستوى الترادي لهذه الألفاظ القمرية:

تردّد حرف التحقيق المؤكد بلام القسم (لقد) ترادا جليا؛ أي بالمعنى و المبنى ذاته و ذلك في أحد عشر موضعا من قوله تعالى:

و لقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر الآية: 4

و لقد تركناها آية فهل من مدكر الآية:15

و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر الآيات:17، 22، 32، 40

و لقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر الآية: 36

و لقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي و نذرى الآية: 37

و لقد صبحهم بكرة عذاب مستقر الآية: 38

و لقد جاء آل فرعون النذر الآية: 41

و لقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر الآية: 51

و قد ورد معطوفا على ما قبله في هذه الآي جميعها، إلا في الآية الثانية عشر (و فجرنا الماء على أمر قد قدر)، فقد تردد ترادا بيْنياً، أي بالمعنى ذاته لكن بمبنى مختلف، إذ ورد هنا في جملة صفة (قد قدر) للأمر الذي أُتقن و أُحكم.

و لما كان المراد من الإخبار عن مصارع تلك الأمم البائدة؛ إنذار مشركي قريش وتحذيرهم من أنهم سيلقون مثل ما لقي أمثالهم و أشياعهم المكذبون المعرضون، فلم يأت هذا الترداد عبثا أو عيا، بل تأكيدا و إثباتا..

و لقد عُني هذا الترداد بسياق الخطاب و بأسلوبه المعجز، فلم يُحدِث فيه شرخا أو ثقلا، و لم يسلبه نضارته و رونقه، بل أضفى عليه القوة و التماسك و الجمال و التناسق.

و من ذلك، ترداد لفظتيْ (إنا) و (أرسلنا) في قوله تعالى :

إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر الآية: 19

فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال و سعر الآية: 24

إنامرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم و اصطبر الآية: 27

إناأرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر الآية: 31

إناأرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر الآية: 34

إنا كل شيء خلقناه بقدر الآية: 49

ترددت لفظة (إنا) ستّ مرات، خمسة منها أُعيدت بالمبنى و المعنى معا و هذا في الآيات 19،27 ،31 ،34 ،49، و واحدة بالمبنى دون المعنى و ذلك في الآية 24.

و تفصيل ذلك أن لفظة (إنا) التي ترددت خمس مرات، جاءت متعلّقة بذات الله سبحانه و تعالى و قد وردت بصيغة الجمع تعظيما لشأنه و قدرته و تصرّفه المطلق في كل أمر؛ و من ذلك قوله تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) سورة الدهر، الآية 2 ، و قوله: (إنا سخرنا الجبال معه يسبّحن) سورة ص، الآية 18 ، و كقوله: (إنا عرضنا الأمانة على السموات و الأرض) سورة الأحزاب، الآية 72 ، و قوله تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) سورة القمر، الآية 49 ، و غيرها كثير، و أما لفظة (إنا) الواردة في الآية 24 فقد تردّدت بالمبنى ذاته لكن بمعنى مختلف عن الأولى، لأنها جاءت في هذا الموضع على لسان قوم صالح عليه السلام.. و في جملة تعليلية لإنكارهم أن يتبعوا بشرا منهم (إنا إذا لفي ضلال وسعر).

و تردد فعل (أرسلنا) بهذا المبنى و بالمعنى نفسه ثلاث مرات في الآيات 19،31،34 ، إلا في الآية 27 فجاءت على صيغة اسم (مرسلو) ، و لهذا فقد ترددت هنا بالمعنى دون المبنى، و لعل الحكمة في هذه المخالفة الترادية أن إرسال العذاب خاص بذاته سبحانه و تعالى، فهو الفعال لما يريد، فهو الذي يرسل الريح الصرصر العاتية و هو الذي يرسل الصيحة و الحاصب و الصواعق فيصيب بها من يشاء، وأما الناقة (ناقة سيدنا صالح عليه السلام) فهي فتنة أراد الله أن يسوقها إلى ثمود امتحانا و بلاء، و بارقة إنذار سيعلمون من خلالها غدا أنهم هم الكذابون الأشرون، و لهذا جاء فعل الإرسال (مرسلو) بمعية صالح عليه السلام فهو الذي « أخرج لهم ناقة من صخرة »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:199)** ، و لأنهم عندما هددهم بقوله (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) « و كانوا قد ادعوا أنه كاذب، قالوا : ما الدليل على صدقك، قال الله تعالى (إنا مرسلو الناقة) أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها »**(أبيحيانالأندلسي،2001،ص:179)**

لعلنا بهذا قد استكشفنا جانبا آخر من جوانب عظمة الترداد في هذا النظم البياني الفرد، و لامسنا سرا من أسرار إعجازه التي لا تبلى و لا تنفذ..

فتأمل هذه الترادات اللفظية (إنا أرسلنا عليهم) و ما تحمله من ترداد دلالي و تأكيد معنوي لا يتنافر و سياق النص القمري، و الْحَظْ ما انطوت عليه من التزام حرفي معجز غير متكلف و لا متحيّز لنقص أو انحراف. ذاك سر التماسك و الانسجام الذي انتشرت في تضاعيفه قوى التأثير و الإيصال وجماليات الوقع و الإيقاع؛ فاسمع جلجلة هذه الآية العظيمة: (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر)، ألست تعاين هذا المشهد المريع؟! ألست تسمع ما فيه من ترداد صرصرة الريح.. أولم تستشعر ترداد مرارة ذلك اليوم و نحسه؟!.. ألم تتردّد في خلدك الآن .. صورة ذاك اليوم القريب المرير.. يوم يُنفخ في الصور؟!!..

إن في استمرارية هذه الترداداتو انتظامها البديع (إنا أرسلنا عليهم) ما يثير الرهبة و الخوف و الوعظ في النفوس و الألباب، إذ إن تفكيك هذه المركبات الترادية (الآيات:19،24 ،27 ،31 ،34) من مجموع عناصرها و تحليلها، مما يقربنا و يرشدنا إلى فهم و استكناه الحقائق الدرّية التي قامت عليها أسس التأثير و الفاعلية المترتبة من جراء امتزاجها بالنفوس و مخامرتها للعقول.

و إذا كان مردّ حُسْن اللفظة إلى معناها، و مردّ قوة المعنى و حسنه إلى لفظه الذي أتى به.و هذا الذي نراه.فالترداد البليغ مما يضفى عليهما معاً حسناً مضاعفاً و ارتباطاً وثيقا، و هذا ما انماز به الخطاب الإلهي المبين.

لا يفوتنا هنا، و نحن بصدد مطالعة بهاء وحدات الهندسة الترادية التي سُبكت بها هاته الرائعة القمرية أن نستحضر ألوان الربط السياقية القشيبة التي زانتها فأبدعتها .

فمن تلك الروابط الواردة الفاء الفجائية و الاستئنافية و الاستفهامية و التفريعية التي ترددت في الآيات: 15 ،17 ،22 ،27 ،31 ،32 ،36 ،37 ،40 ،51 ، و لنوضح هذا في الخطاطتين التاليتين:

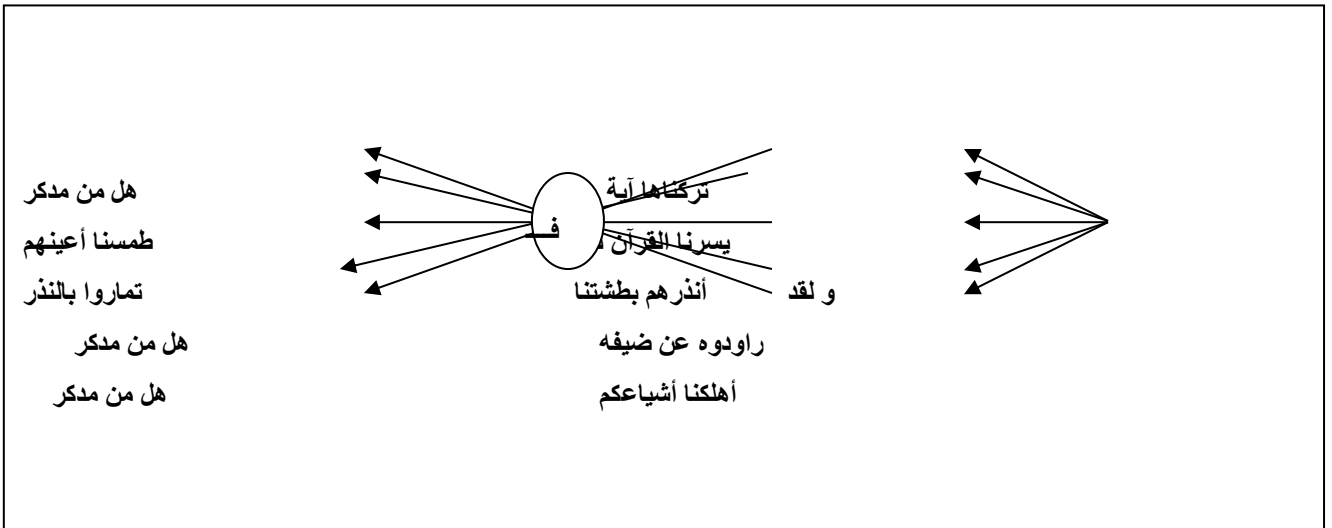

تردد فعل التكذيب سبع مرات، أربعة منها بصيغة المفرد (كذبت) حيث ترددت ترادادا جليا، أي بالمعنى و المبنى معا، و ثلاثة منها ترددت بصيغة الجمع (كذبوا) و بالمعنى ذاته و المبنى ذاته أيضا، و هذا في قوله تعالى :

و كذبوا و اتبعوا أهواءهم و كل أمر مستقر الآية: 3
كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا و قالوا مجنون و ازدجر الآية: 9
كذبت عاد فكيف كان عذابي و نذرى الآية: 18
كذبت ثمود بالنذر الآية: 23
كذبت قوم لوط بالنذر الآية: 33
كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر الآية : 42

فلفظة (كذبوا) الواردة في الآية 3 إخبارٌ عن حال مشركي قريش فيما مضى، بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله (و إن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر)، ففي كلا الحالين كذب و تكذيب و إعراض و جحود، و أما الثانية التي في قوله (فكذبوا عبدنا) فهي إخبار عن قوم نوح عليه السلام، و الثالثة المرددة في الآية 42 فهي تحدّثنا عن آل فرعون..

أما لفظة (كذبت) المرددة في الآيات : 9 ،18 ،23 ،33 فهي صريحة بورودها مجاوِرة للأقوام و الأعلام الذين كذبوا .

و سنحاول بعد هذه الإحصاءة الأولية و التفكيكة المقصدية لهذه الآيات أن نستشف ما وراءها من دلالات تركيبية أرادها سياق هذا النظم المعجز، و ما علّة هذه الخصوصية المقصودة، « ذلك لأن الكلمة في حال إفرادها تحتمل دلالات شتى، و التركيب و العلاقات السياقية هي التي تكشف عن قصد المتكلم إلى إحدى هذه الدلالات التي تحتملها الكلمة حال إفرادها، و عزلها عن السياق »(**عبدالحميدأحمديوسفهنداوي، 2001 ،ص:50**)، فترداد لفظة (كذبوا) في الآية 9 هو « لتفريع الإخبار بتفصيل تكذيبهم إياه بأنهم قالوا (مجنون و ازدجر) على الإخبار بأنهم كذبوه على الإجمال.. و أعيد فعل (كذبوا) لإفادة توكيد التكذيب..و يجوز أن يكون فعل (كذبت) مستعملا في معنى: إنهم اعتقدوا كذبه، فتفريع (كذبوا عبدنا) عليه تفريع تصريحهم بتكذيبه على اعتقادهم كذبه، فيكون فعل (كذبوا) مستعملا في معنى غير الذي استعمل فيه فعل (كذبت)(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:181،180**)

و لأن نوحا عليه السلام قد عاش ألفا إلا خمسين سنة، فقد عايش أقواما و أمما متعاقبات « فكذبوه تكذيبا يعقبه تكذيب، كلما مضى قرن مكذب تبعه قرن مكذب »(**أبيحيانالأندلسي،2001،ص:174**) فناسب هذا لفظة (كذبوا) لما فيها من تضخيم و تكثير يقابله ذاك العدد الجمّ من الأمم و القرون التي بُعث نوح عليه السلام نبيا و رسولا إليها.

و أما في قوله تعالى (كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) فإن « فرعون لم يستأثر بردّ دعوة موسى بل قال لمن حوله (ألا تستمعون) و قال (فماذا تأمرون) و قالوا (أرجه و أخاه).. و لذلك لم يكن أسلوب الإخبار عن فرعون و من معه مماثلا لأسلوب الإخبار عن قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط إذ صدر الإخبار عن أولئك بجملة (كذبت)، و خولف في الإخبار عن فرعون فصدر بجملة (و لقد جاء آلَ فرعون النذر) و إن كان مآل هذه الأخبار الخمسة متماثلا(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:208**)»، ثم إن لفظة (كذبوا) الواردة في الآية 42 هي للتخصيص، إشارة إلى الآيات التسع التي كذبت بها بنو إسرائيل.

فتأمل حضور هاتين اللفظتين الموحيتين و غيابهما المتساوق، و ما صنعه في سياق هذه الآيات من إجمال و تفصيل و خصوصيات أسلوبية زانت المبنى فأفاضت في المعنى.

تعدّدت أوجه الترداد اللفظي و تناوعت وظائفه و فاعلياته داخل النص القمري فتوزّعت توزّعا منسّقا و محكما، أُحكمت به تناسقية السورة و وحداتها و انسجمت به هندستها الصوتية و الصورية..و فُصّلت آياتها و دلالالتها، ففصّلت و أوفت.

و من هذه الترادات اللفظية لفظة (الساعة) التي ترددت ثلاث مرات و بأوجه متعددة، فالساعة الواردة في قوله تعالى (اقتربت الساعة و انشق القمر) هي « علم بالغلبة

على وقت فناء هذا العالم، و يجوز أن يراد بالساعة ساعة معهودة أنذروا بها في آيات كثيرة و هي ساعة استئصال المشركين بسيوف المسلمين»(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:171**)و الساعة التي في قوله (بل الساعة موعدهم) فهي « علم بالغلبة في القرآن على يوم الجزاء.. و أعيد اسم الساعة في قوله (و الساعة أدهى) دون أن يؤتى بضميرها لقصد التهويل، و لتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسير مسير المثل »(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:214**)

و ترددت لفظة (الماء) مرتين اثنتين بالمبنى ذاته و بمعنيين مختلفين، فالماء المقصود في قوله تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) هو ماء الأمطار النازل بقوة، و أما قوله تعالى (و فجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) فيُفهم منه التقاء الماء كلّه؛ الماء النازل المنهمر و الماء المتصعّد المنفجر فـ« عُلم من إسناد الالتقاء أنهما نوعان من الماء، ماء المطر و ماء العيون »(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:183**)، ثم ترددت هذه اللفظة مرة ثالثة لكن بمعنى مختلف عن سابقيه، و هذا في قوله تعالى (و نبّئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتظر)، فالماء المقصود هنا هو ماء القرية الذي تستقي منه ثمود و الناقة، و قد جاء في سورة الشعراء قوله تعالى (قال هذه ناقة لها شرب و لكم شرب يوم معلوم) ، فكانت قسمة الماء هي مبدأ الفتنة، و لعلّك تلحظ من خلال هذا الاصطفاء الحسن لهاته اللفظة الشفافة (الماء) ، و طريقة سبكها الترددي و أسلوبيتها التركيبية، ما يغني عن وصف التفرّد الأسلوبي الفذ الذي امتاز به التنزيل المحكم.

و من ذاك القبيل لفظة (شيء) التي ترددت في ثلاثة مواضع تردداً خفياً، أي بالمبنى دون المعنى، و ذلك في قوله تعالى (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) الآية 6 ،و قوله (إنا كل شيء خلقناه بقدر) الآية 49 ، و قوله (و كل شيء فعلوه في الزبر) الآية 52 ، فـ(شيء) الأولى هي الأمر العظيم « لأن ما في لفظ (شيء) من الإبهام يُشعر بأنه مهول، و ما في تنكيره من التعظيم يجسم ذلك الهول.. و وصف شيء بأنه نكر ، أي موصوف بأنه تنكره النفوس و تكرهه » (**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:177**)، و أما (شيء) الثانية فهي كل موجود و كائن و جوهر، و (شيء) الثالثة هي كل شيء « فعله المشركون من شرك و أذى للنبي صلى الله عليه و سلم و للمسلمين » (**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:223**)

ثم ترددت هذه اللفظة مرتين أخريين تردداً بيْنياً، أي بالمعنى دون المبنى، و هذا في قوله تعالى (و كل صغير و كبير مستطر) لأن المعنى . هنا . هو « كل شيء حقير أو عظيم مستطر، أي مكتوب مسطور »(**محمدالطاهربنعاشور،سنةالنشر،ص:224**)

ترددت لفظتي (ضلال) و (سعر) مرتين اثنتين بالمبنى ذاته، و لكن بمعنيين مختلفين و ذلك في قوله تعالى (فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال و سعر) الآية 24 ، و في قوله (إن المجرمين في ضلال و سعر) الآية 47 ، فلا تحسبنّ المعنى واحدا، لأن لفظة (ضلال) الأولى تعني عدم الاهتداء إلى الطريق، و كأنهم أرادوا القول « إنا إذن مخطئون في أمرنا » **(محمدالطاهربنعاشور،1997ص:197)**أما (ضلال) الثانية فأكثر المفسرين يجمعون على أنها تطلق على الخسران « فعن ابن عباس: المراد الخسران في الآخرة، لأن الظاهر أن (يوم يسحبون في النار) طرف للكون في ضلال و سعر على نحو قوله تعالى (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة) و قوله (و يوم القيامة هم من المقبوحين) فلا يناسب أن يكون الضلال ضدّ الهدى »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:215)**

و كذلك الأمر بالنسبة للفظة (سعر)، فالمراد بها في الآية الأولى الجنون ، و سُبقت بِ (في) للظرفية المجازية، فكأنهم « جعلوا تلبسهم بالضلال و الجنون كتلبس المظروف بالظرف »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:197)** ، أما (سعر) الثانية فهي جمع سعير و المراد به هنا النار، « و روي عن ابن عباس و فسّر به أبو علي الفارسي قائلا: لأنهم إن كانوا في السعير(بمعنى نار جهنم) لم يكونوا في ضلال لأن الأمر قد كشف لهم و إنما وصف حالهم في الدنيا، و عليه فالضلال و السعر حاصلان لهم في الدنيا »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:216 بتصرف)**

و لما كان عدم الاهتداء أهون عاقبة من الخسران المبين، و الجنون و التلبّس أخفّ ضررا و مآلا من نار جهنم و سعيرها، ناسب هذا أن تقترن خصوصية المعنى في لفظتي (ضلال) و (سعر) المتعلقة بعدم الاهتداء و الجنون. فهما صفتان أخصّ من صفتيْ الخسران و النار. بخصوصية القوم المقصودين في الآية الكريمة و هم قوم صالح عليه السلام، و كذلك اقترنت عمومية المعنى في لفظتي (ضلال) و (سعر) المتعلقة بالخسران و النار بعمومية صفة الإجرام و إلصاقها بمشركي مكة.

أما لفظة (النذر) فقد وردت خمس مرات معرّفة بالألف و اللام ثم ترددت نكرةً في ستة مواضع، و تنوّع ترادها بين المبنى و المعنى معا و بين المبنى دون المعنى، فلفظة (النذر) الواقعة في قوله تعالى (حكمة بالغة فما تغن النذر) هي آيات القرآن و إنذارات محمد صلى الله عليه و سلم المتكرّرة لقومه، و (النذر) التي في قوله (كذبت ثمود بالنذر) فهي خاصة بإنذارات الله تعالى لثمود على لسان نبيه صالح عليه السلام، و (النذر) الواردة في قوله (كذبت قوم لوط بالنذر) فهي إنذارات الله لقوم لوط عليه السلام، و أما التي في قوله (و لقد أنذرهم

بطشتنا فتماروا بالنذر) فهي إنذار الرسول محمد صلى الله عليه و سلم لقريش، حيث وردت هذه الآية مضمنة في قصة قوم لوط عليه السلام « و تأكيد الكلام بلام القسم و حرف التحقيق يقصد منه تأكيد الغرض الذي سيقت القصة لأجله و هو موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فتماروا بالنذر » **(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:205)**، أما لفظة (النذر) الواردة في قوله (و لقد جاء آل فرعونَ النذر) فهي إنذارات موسى عليه السلام المتتالية لقومه.

أما لفظة (نذر) نكرةً، فقد ترددت ست مرات، و حُذف ياء المتكلم منها لأن الأصل فيها : نذري، « و حذفها في الكلام في الوقف فصيح و كثر في القرآن عند الفواصل »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:187)**

فأول ما وردت في قوله تعالى (فكيف كان عذابي و نذرى) الآية 16 ، و هو تفريع على قصة قوم نوح عليه السلام مع قومه، و فيها تعريضٌ بتهديد المشركين أن يصيبهم مثل ما أصاب قومَ نوح؛ جزاء تكذيبهم الرسول صلى الله عليه و سلم و إعراضهم عنه و أذاهم له، و أما لفظة (نذر) الواردة في قوله (كذبت عاد فكيف كان عذابي و نذرى) الآية 18 ، فهي إنذارات الله تعالى لقوم هود عليه السلام ، و أما ترادها مرة أخرى بالمعنى و المبنى معا في قوله (فكيف كان عذابي و نذرى) الآية 21 فهو « تكرير لنظيره السابق عقب قصة قوم نوح لأن مقام التهويل و التهديد يقتضي تكرير ما يفيدهما»**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:195)**

ثم ترددت هذه اللفظة بالمبنى ذاته و بمعنى آخر و ذلك في قوله (فكيف كان عذابي و نذرى) الآية 30 ، و هي إنذارات موجهة لقوم صالح عليه السلام.

و أما المرددة في الآيتين الكريمتين (و لقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي و نذرى)

الآية 37 (فذوقوا عذابي و نذرى) الآية 39 فهي النذر المرددة على أسماع قوم لوط عليه السلام.

و كثيرة هي الثنائيات الترادية اللفظية التي جاء ترادها جليا، أي بالمبنى و المعنى ذاته، فمنها لفظة (مستمر) و (مستقر) و (الداع) و (مقتدر) و (الزبر) و غيرها كثير.

و أما عن ترداد الجمل و العبارات و أوجهه الوظيفية المتناوعة، فأبرز ترادة تزخر بها هذه السورة الكريمة هي اللازمة الثنائية القمرية، و التي تمثلها الآيتان الكريمتان (فكيف كان عذابي و نذرى) ، (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ..

ناظمتان هندسيتان ملتحمتان ارتكزت عليهما المنظومة القمرية المعجزة مبنىً و معنىً و أسلوباً، فانبجس من خلالهما انسجام تركيبي متناغم أثرى السورة قوة و تماسكا و جمالا و بهاء.

فمما يسْتتر خلف هذا التركيب المنسجم ذاك الوقع الثنائي الشفاف الذي أحدثه ترداد هاتين الوحدتين الموسيقيتين، و هذا ما أسهم في تناسق البنية الموسيقية الكلّية للنص.

و إذا تصفحنا هذه السورة المبينة، لألفيناها تضمّ ثلاث آيات تشكل اللازمة الأولى (فكيف كان عذابي و نذرى) و هذا في الآيات 16 ،21 ،30 ، و آيةٌ واحدةٌ تضمّنت هاته اللازمة فكانت جزءاً منها و هذا في قوله تعالى (كذبت عاد فكيف كان عذابي و نذرى) الآية 18 ، أما اللازمة الثانية (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) فترددت في الآيات الأربع: 17 ،22 ،32 ،40 .

فمجيئها في الآية 16 هو تفريعٌ على الآيات السابقة التي تضمّنت قصة قوم نوح، و تعريضٌ بتهديد مشركي مكة أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، جزاء تكذيبهم الرسول صلى الله عليه و سلم و إعراضهم عنه.

أما التي في قوله تعالى (كذبت عاد فكيف كان عذابي و نذرى) الآية 18 فهي تفريع على التذكير بتكذيب عاد، و الاستفهام الوارد فيها « مستعمل في التشويق للخبر الوارد بعده و هو مجاز مرسل لأن الاستفهام يستلزم طلب الجواب و الجواب يتوقف على صفة العذاب و هي لما تذكر فيحصل الشوق إلى معرفتها و هو أيضا مكنّى به عن تهويل ذلك العذاب »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:191)**، و ترداد العبارة نفسها في الآية 21 هو تكرير للترداد الوارد في الآية 16 ، أي عقب قصة قوم نوح عليه السلام « لأن مقام التهويل و التهديد يقتضي تكرير ما يفيدهما» (**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:195)**

أما ترادها في الآية 30 « فليس هو تكريرا و لكنه خاص بهذه القصة »(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:188،187)**أي قصة ثمود و أخيهم صالح عليه السلام.

و ترددت اللازمة الثانية (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) أربع مرات و ذلك في الآيات 17 ،22 ،32 ،40 و قد وردت في الآيتين 17 و 22 عقِب اللازمة الأولى (فكيف كان عذابي و نذرى) مباشرة، لأنه « لما كانت هذه النذارة بُلّغت بالقرآن و المشركون معرضون عن استماعه حارمين أنفسهم من فوائده ذُيّلَ خبرها بتنويه شأن القرآن بأنه من عند الله و أن الله يسّره و سهّله لتذكّر الخلق بما يحتاجونه من التذكير مما هو هدى و إرشاد » ، أما تواترها في الآيتين الأخريتين 32 ،40 فقد كان ترادا مستقلا عن اللازمة الأولى ، فهو في الآية 32 تكرير

مماثل لنظيريه السالفين عقب قصتي قوم نوح و عاد، و هو تذييل لقصة ثمود، كما اقتضى هذا التكرير « مقام الامتنان و الحثّ على التدبّر بالقرآن لأن التدبّر فيه يأتي بتجنّب الضلال و يرشد إلى مسالك الاهتداء، فهذا أهمّ من تكرير (فكيف كان عذابي و نذرى) فلذلك أُوثر»(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:203**) و في الآية 40 تكرير آخر للتنويه بيسورة القرآن، و لم تُذكر هنا اللازمة الأولى (فكيف كان عذابي و نذرى) « اكتفاء بحكاية التنكيل لقوم لوط في التعريض بتهديد المشركين » (**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:207**)

و من آيات الانسجام والاتساق التي حققها ترداد هذه اللازمة التذكيرية داخل النص القمري؛ التأكيد على وحدانية النظم القرآني في لفظه و معانيه، و الانباء عن يُسْره و يسورته« فأما من جانب الألفاظ فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات و فصاحة التراكيب.. و أما من جانب المعاني فبوضوح انتزاعها من التراكيب و وفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، و بتولّد معان من معان أخر كلّما كرّر المتدبر تدبّره في فهمها »(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:188**)

و لعلّك تلحظ ما ظَفِرتْ به هذه الترادة المعجزة من إيجاز بليغ في اللفظ و قابلية لسرعة الحفظ، تطرب لهما نفس السامع و يفرح لديهما القلب.. فقوله (يسرنا القرآن للذكر) أي أن القرآن يُسّرت دلالاته و سُهّلت معانيه لأجل الذكر، و التذكّر اللساني ثم العقلي، و لمّا كان الذكر موجبا للذاكر فُرّع على هذا المعنى قوله (فهل من مدّكر) ادّكار اتّعاظٍ و اعتبار، واهتداءٍ و تحلّ.

و من مظاهر الكفاءة التناسقية التي كُشفت عنها هاته اللازمة الثنائية الترادية تلك الأناقة اللونية الأسلوبية التي اصطبغت بها السورة، و ذلك التسلسل المعنوي و الانتقال السلس من غرض إلى آخر، و هذا كلّه في إيقاع موسيقي أخّاذ أتقنت صُنعه الألفاظ المصطفاة، و ظلالها المستوحاة، ضِفْ إلى ذلك سرعة التنقل من مشهد إلى مشهد داخل القصة الواحدة، و تواتر العرض الشيّق و تحوّله من قصة إلى أخرى بالقدْر الذي يستوفي الغرض، و ذاك التمازج المنثور بين الأغراض و التوجيهات الإلهية المبتغاة و بين سياق القصة المعروضة.

و من بين العبارات الترادية، قوله (فذوقوا عذابي و نذرى)، فقد تردّدت مرّتين اثنتين ترددا خفيا، أي بالمبنى دون المعنى و ذلك في قوله تعالى (و لقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي و نذرى) الآية 37 ، و قوله (فذوقوا عذابي و نذرى) الآية 39 ،

فالترادادة الأولى هي في حقّ النّفر الذين طُمست أعينهم « أي ألقى الله في نفوسهم أن ذلك عقاب لهم »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:206)** ، أما الترادادة الثانية فهي في حقّ « جميع الذين أصابهم العذاب المستقر، و بذلك لم تكن هذه الجملة تكريرا » **(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:207)**و لكن تردّدت مرّتين اثنتين و في هذين الموضعين الموصوفين ليتجدّد عند سماع كل نبأ من ذلك ادّكار لهم و اتّعاظ.

إن من أغراض القصة القرآنية بيان نصر الله لأنبيائه المرسلين و إهلاك أعداءه المكذبين، تثبيتا لمحمد صلى الله عليه و سلم و تسلية له، و تطمينا و بشارة للمؤمنين خاصة و تبيانا للناس كافة « أن الدّين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمّد.. و كثيرا ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة، لتؤيّد هذه الحقيقة » (**سيد قطب،1983،ص:119)**، و من مظاهر خضوع القصة إلى الغرض الديني عرض دعوة الأنبياء و الرسل و إعراض الأقوام الكافرة و تكذيبهم، و ترداد هذه الظاهرة مرّات متعدّدة حتى يُخيّل للمتأمل من خلال هذا العرض المتردّد أنه نبي واحد و رسالة واحدة فـ « كل نبي يمرّ و هو يقول كلمته الهادية، فتكذبه هذه الإنسانية الضالّة، ثم يمضي و يجيء تاليه فيقول الكلمة ذاتها و يمضي؛ و هكذا ... » (**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:139)** ، و لما كانت قصص نوح و هود و صالح و لوط . عليهم السلام . معظمها قصيرة، لأنها عُرضت عند حلقة متأخرة جدّا من حياتهم؛ جاءت سورة القمر واحدة من السور التي اختُصّت بهذا النحو من الترداد، فتضمّنت الرسالة و الحوار مع القوم، و تكذيبهم، ثم مصرعهم و هلاكهم، أما قصة موسى عليه السلام فعلى طولها و كثرة ترادادها في سور عديدة من القرآن الكريم جاءت هنا مجملة و مكثفة بصورة دقيقة راعت تناسق القصّ و انسجام النصّ، و إيفاءً للغرض الموحّد من عرْض هذه القصص مجتمعة، و هو وحدة الرسالة السماوية و وحدة الجزاء لمن اهتدى و شكر و وحدة العقاب لمن أعرض و تجبّر.

و لا يخفى ما ترك هذا الترداد من أثر بليغ طال صداهُ السورة بأكملها، من بدئها إلى ختمها، فمن سحر اللفظة إلى قوة العبارة، إلى براعة التصوير، إلى عبقرية الإيقاع، إلى إيفاء الدلالة ..و هذا كلّه في تناسق محكم و انسجام تام.

هذا عن أوجه الترداد التي تجلّت على مراتبها الثلاثة؛ بالمعنى دون المبنى و بالمبنى دون المعنى، و بالمبنى و المعنى مجتمعين، أما عن أنواعه الزاخرة و ألوانه البديعة فهي ثرّة و متعدّدة، و نذكر منها ترداد التشبيه الذي في قوله تعالى (كأنهم جراد منتشر) فقد أفاد الكثرة و الاكتظاظ و سرعة التحرّك، و التشبيه الوارد في قوله (كأنهم أعجاز نخل منقعر) و قد أفاد

الدقة في التصوير و البلاغة في الوصف؛ فالريح التي اقتلعتهم تفتّقت منه بطونهم فتطايرت أحشاؤهم و انفجرت أمعاؤهم و انقعرت رؤوسهم، و كذلك التشبيه المردّد في قوله تعالى (فكانوا كهشيم المحتظر) إذ شُبّهوا بما يبس و جفّ من أغصان الشجر، و الهشيم مشتقّ من الهشْم و هو الكسْر، أي سريع الانكسار و « المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف و يصفّف و قبل أن تتّخذ من الحظيرة » (**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:203**) و المحتظر هو القائم على عمل الحظيرة، و في قوله تعالى (و ما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) تشبيه في سرعة الحصول و الحدثان « أي ما أمرنا إلا كلمة واحدة سريعة التأثير في المتعلّقة هي به كسرعة لمح البصر » (**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:221**)و في هذا إفادة بإحاطة الله بكل شيء و سعة علمه لأيّ شيء.

و من ذلك، الترداد بالاعتراض، فقوله تعالى (و كل أمر مستقر) اعتراض بين جملة (و كذبوا و اتبعوا أهواءهم) و جملة (و لقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) و كذلك القول في الاستئناف البياني الذي في قوله تعالى (يوم يدع الداع إلى شيء نكر...) فهو اعتراض بين جملة (و لقد جاءهم من الأنباء) و جملة (كذبت قبلهم قوم نوح)، و الأمر ذاته في الاعتراض المردّد في الآية 35 ؛ فجملة (كذلك نجزي من شكر) معترضة بين قوله (نعمة من عندنا) و جملة (و لقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) .

و من ذلك أيضا، ترداد الاستئنافات البيانية المتواترة في الآيات التالية : (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) الآية 6 ، (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا و قالوا مجنون وازدجر) الآية 8 ، (كذبت عاد فكيف كان عذابي و نذرى) الآية 18 ، (كذبت ثمود بالنذر) الآية 23 ، (كذبت قوم لوط بالنذر) الآية 32 ، (إن المتقين في جنات و نهر) الآية 54 .

ورد ترداد المجاز في مواضع جمّة نذكر منها ما جاء في قوله تعالى (مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) و هو قول الخائفين المرتاعين، و « وصف اليوم بِ (عسر) وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زمانا لأمور عسرة شديدة من شدّة الحساب و انتظار العذاب »(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:178**)، و المجاز الوارد في قوله تعالى (فدعا ربّه أني مغلوب فانتصر) إذ شبّه يأس نوح عليه السلام من قومه بحال ذاكَ المقاتل الذي غلبه خصمه، ألمْ يقل نوح (.. ربّ إني دعوت قومي ليلا و نهارا فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا) ؟! سورة نوح، الآيتين 5 ،6 ، أما عابوه و ازدجروه و (مكروا مكرا كبّارا) ؟! سورة نوح، الآية 22

و قد تردد هذا المجاز مُرسلاً في صيغة استفهام غرضه التشويق للخبر الذي سيليه، و هذا في قوله تعالى (كذبت عاد فكيف كان عذابي و نذرى) ، و أما في قوله تعالى (فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي و نذرى) فقد « استُعمِل الذوق في الإحساس بالعذاب و النذر مجازا مرسلا بعلاقة التقييد في الإحساس ».(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:206)** و كذلك استُعمِل المسّ في الإصابة؛ على شاكلة المجاز المرسل في قوله تعالى (ذوقوا مسّ سقر).

و من ترداد الاستعارة ما جاء في قوله تعالى (فالتقى الماء على أمر قد قدر) إذ شبّه الماء المنهمر و الماء المنفجر بفئتين التقتا في مكان واحد و في زمن واحد، و قوله تعالى على لسان قوم صالح (أالقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) فحقيقة الإلقاء هنا هي ما « ما رُميَ من اليد إلى الأرض، و هو هنا مستعار لإنزال الذكر من السماء »**(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:197)**كقوله تعالى (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا)، و كذلك فعل الإرسال الذي في قوله تعالى (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم و اصطبر) فهو مستعار بدليل تشبيه الناقة بشاهدٍ أرسله الله تأييدا لرسوله و تقييدا لأعداءه..

و استُعير فعل الأخذ في قوله تعالى (.. فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) للانتقام الشديد الذي لا يبقي و لا يذر، و أما قوله (و الساعة أدهى و أمرّ) ففيه استعارة « المرارة للإحساس بالمكروه على طريقة تشبيه المعقول الغائب بالمحسوس المعروف » **(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:214).**

و أما عن ترداد الاستعارة الوارد في قوله تعالى (و كل صغير و كبير مستطر) فقد استُعير الصغير لكلّ شيء قد يُخالُ إليكَ هيّنا أو لا شأن له، و استُعير الكبيرُ بما عظُمَ من الأفعال خيرها أو شرّها، صالحها أو فاحشها..

و من ترداد الإيجاز بالحذف؛ حذفُ ما يلزم تعلّقه بعبارة (فانتصر) من السياق، مراعاة للفاصلة لأن التقدير : فانتصر لي ، أو انصرني.

و من ذلك حذف متعلّق (كُفِر) فاستُغني عنه لدلالة السياق عليه، لأن تقديره : لمن كان كُفِر به.

و مثل ذلك أيضا حذف ياء المتكلّم من لفظة (نذري) في قوله تعالى (فكيف كان عذابي و نذرى) ، و لما كان إسكان الحركة عند الوقف من علامات الفصاحة في كلام العرب، كان حذف الياء أفصح و أبلغ، و هذا ما اختصّت به فواصل الآي الكريمة.

و من ترداد التمثيل و الكناية قوله تعالى (و كل أمر مستقر) فهي جملة تمثيلية مكنية « لأن التركيب الذي يدلّ على الحالة المشبّه بها حُذِف و رُمِز إليه بذكر شيء من روادف معناه و هو وصف مستقر».(**محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:173)**

و مثيل ذلك اسم المفعول (مستطر) ففيه كناية عن علم الله بكلّ شيء مهما صغر أو كبر « و ذلك كناية عن الجزاء عليه مكان ذلك جامعا للتبشير و الإنذار ». **(محمدالطاهربنعاشور،1997،ص:224)**

الاستنتاج والتوصية

الخاتمة:

1- الذكر الحكيم يربط المعنى المعجز بالصوت الإبلاغي الجميل المؤثر
2- الصوت القرآني تصويري للدلالة وبه يتم الإمان والتأثير والإفهام
3- ياليت الدراسات الحديثة المعاصرة اليوم تأتم بإعجازية الصوت القرآني في التعلم والبحث العلمي للسان العربي وفروعه
4- تفرد هذا الكتاب العزيز بإعجاز بياني صوتي يهدي للتي هي أقوم روحا وعقلا وجسما؛ ويكفينا آثار الترتيل والتجويد

إعجاز صرفي صواتي للقرآن العظيم له علاقة وطيدة بالصناعة الإلهية المتقنة لجسم الإنسان؛ من أجل ذلك تتجاوب معه قلوب وآذان عربية وغير عربية ومسلمة وغير مسلمة

المراجع:

البدراوي زهران،(1993)، ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء و المحدثين، ط02، دار المعارف، المكتبة الوطنية الجزائرية.

حليمة مدرس بوداود،(2003)، معجزة حروف القرآن، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، الجزائر.

أبي حيان الأندلسي،(2001)، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

عمر السلامي، (1980)، الإعجاز الفني في القرآن، نشر و توزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس.

أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني،(1988)، العمدة في محاسن الشعر و آدابه، ج:1 دار المعرفة بيروت، لبنان .

علي نجيب ابراهيم(2004)، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، ط02، دار كنعان للدراسات و النشر و الخدمات الإعلامية، دمشق، سوريا.

عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي،(2001)، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ط01، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

سمير أبو حمدان،(1991)،الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية،"ط:01، بيروت، باريس.

سيد قطب،(1983)، في ظلال القرآن، مج:6 ، ج: 26 -30 ، دار الشروق، بيروت- القاهرة.

توفيق الزيدي،(1985)، مفهوم الأدبية في التراث النقدي، سراس للنشر، تونس.

محمد الطاهر بن عاشور،(1997)، تفسير التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، تونس-الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.